الإمام الكوثري بقلم الأستاذ الكبير الشيخ محمد أبو زهرة وكيل كلية الحقوق و أستاذ الشريعة بجامعة القاهرة

منذ أكثر من عام فقد الإسلام إماما من أئمة المسلمين الذي علوا بأنفسهم عن سفساف هذه الحياة، و اتجهوا إلى العلم اتجاه المؤمن لعبادة ربه، ذلك بأنه علم أن العلم عبادة من العبادات يطلب العالم به رضا الله لا رضا أحد سواه، لا يبغي به علوا في الأرض و لا فسادا و لا استطالة بفضل جاه، و لا يريده عرضا من أعراض الدنيا، إنما يبغي به نصرة الحق لإرضاء الحق جل جلاله. ذلكم هو الإمام الكوثري، طيب الله ثراه، و رضي عنه و أرضاه.

لا أعرف أن عالما مات فخلا مكانه في هذه السنين كما خلا مكان الإمام الكوثري؛ لأنه بقية السلف الصالح الذين لم يجعلوا مرتزقا و لا سلما لغاية، بل كان هو منتهى الغايات عندهم و أسمى مطارح أنظارهم، فليس وراء علم الدين غاية يتغياها المؤمن، و لا مرتقى يصل إليه عالم.

لقد كان – رضي الله عنه – عالما يتحقق في القول المأثور (العلماء ورثة الأنبياء) و ما كان يرى تلك الوراثة شرفا فقط ليفتخر به ويستطيل على الناس، إنما كان يرى تلك الوراثة جهادا في إعلان الإسلام و بيان حقائقه و إزالة الأوهام التي تلحق جوهره، فيبديه للناس صافيا مشرقا منيرا، فيعشوا الناس إلى نوره و يهتدون بهديه، و أن تلك الوراثة تتقاضى العالم أن يجاهد كما جاهد النبيون و يصبر على البأساء و الضراء كما صبروا، و أن يلقى العنت ممن يدعوهم إلى الحق و الهداية كما لقوا، فليست تلك الوراثة شرفا إلا لمن أخذ في أسبابها و قام بحقها و عرف الواجب فيها، و كذلك كان الإمام الكوثري – رضي الله عنه.

إن ذلك الإمام الجليل لم يكن من المنتحلين لمذهب جديد و لا من الدعاة إلى أمر بدئ لم يسبق به، و لم يكن من الذين يسمهم الناس اليوم بسمة التجديد، بل كان ينفر منهم، فإنه كان متبعا و لم يكن مبتدعا، و لكني مع ذلك أقول إنه كان من المجددين بالمعنى الحقيقي لكلمة التجديد، لأن التجديد ليس هو ما تعارفه الناس اليوم من خلع للربقة و رد لعهد النبوة الأولى، إنما التجديد هو أن يعاد إلى الدين رونقه و يزال عنه ما علق به من أوهام، و يبين للناس صافيا كجوهره نقيا كأصله، و إنه لمن التجديد أن تحيا السنة و تموت البدعة و يقوم بين الناس عمود الدين.

ذلك هو التجديد حقا و صدقا، و لقد الإمام الكوثري بإحياء السنة النبوية فكشف عن المخبوء بين ثنايا التاريخ من كتبها، و بين مناهج رواتها، و أعلن للناس في رسائل دونها و كتب ألفها سنة النبي صلى الله عليه و سلم من أقوال و أفعال و تقريرات، ثم عكف على جهود العلماء السابقين الذين قاموا بالسنة و رعوها حق رعايتها فنشر كتبهم التي دونت فيها أعمالهم لإحياء السنة و الدين، قد أشربت النفوس حبه، و القلوب لم ترنق بفساد و العلماء لم تشغلهم الدنيا عن الآخرة و لم يكونوا في ركاب الملوك.

لقد كان الإمام الكوثري عالما حقا، عرف علمه العلماء، و قليل منهم من أدرك جهاده، و لقد عرفته سنين قبل أن ألقاه، عرفته في كتاباته التي يشرق فيها نور الحق، و عرفته في تعليقاته على المخطوطات التي قام على نشرها، و ما كان و الله عجبي من المخطوط بقدر إعجابي بتعليق من علق عليه، لقد كان المخطوط أحيانا رسالة صغيرة، و لكن تعليقات الإمام عليه تجعل منه كتابا مقروءا، و إن الاستيعاب و الاطلاع و اتساع الأفق تظهر في التعليق بادية العيان، كل ذلك مع طلاوة عبارة و لطف إشارة و قوة نقد و إصابة للهدف و استيلاء على التفكير و التعبير، و لا يمكن أن يجول بخاطر القارئ أنه كاتب أعجمي و ليس بعربي مبين، و لقد كان لفرط تواضعه لا يكتب مع عنوان الكتاب عمله الرسمي الذي كان يتولاه في حكم آل عثمان، لأنه ما كان يرى – رضي الله عنه – أن شرف العالم يناله من عمله

الرسمي، و إنما يناله من عمله العلمي، فكان بعض القارئين – لسلامة المبنى مع دقة المعنى و لإشراق الديباجة و جزالة الأسلوب – لا يجول بخاطره أن الكاتب تركي، بل يعتقد أنه عربي ولد عربيا و عاش عربيا، و لم تظله إلا بيئة عربية. و لكن لا عجب فإنه كان تركيا في سلالته و في نشأته و في حياته الإنسانية في المدة التي عاشها في الآستانة، أما حياته العلمية فقد كانت عربية خالصة، فما كان يقرأ إلا عربيا و ما ملأ رأسه المشرق إلا النور العربي المحمدي، و لذلك كان لا يكتب إلا كتابة نقية خالية من كل الأساليب الدخيلة في المنهاج العربي، بل كان يختار الفصيح من الاستعمال الذي لم يجر خلاف حول فصاحته، مما يدل على عظم اطلاعه على كتب اللغة متنا و نحوا و بلاغة، ثم هو فوق ذلك يقرض الشعر العربي فيكون منه الحسن.

لقد اختص – رضي الله عنه – بمزايا رفعته و جعلته قدوة للعالم المسلم. لقد علا بالعلم عن سوق الاتجار، و أعلم الخافقين أن العالم المسلم وطنه أرض الإسلام، و أنه لا يرضى بالدنية في دينه، و لا يأخذ من يذل الإسلام بهوادة، و لا يجعل لغير الله و الحق عنده إرادة، و أنه لا يصح أن يعيش في أرض لا يستطيع فيها أن ينطق بالحق و لا يعلي فيها كلمة الإسلام و إن كانت بلده الذي نشأ فيه و شدا و ترعرع في مغانيه، فإن العالم يحيا بالروح لا بالمادة، و بالحقائق الخالدة لا بالأعراض الزائلة. و حسبه أن يكون وجيها عند الله و في الآخرة و أما جاه الدنيا و أهلها فظل زائل و عرض حائل.

و إن نظرة عابرة لحياة ذلك العالم الجليل ترينا أنه كان العالم المخلص المجاهد الصابر على البأساء و الضراء. و تنقله في البلاد الإسلامية و البلاء بلاء، و نشره النور و المعرفة حيثما حل و أقام. و لقد طوف في الأقاليم الإسلامية فكان له في كل بلد حل فيه تلاميذ نهلوا من منهله العذب و أشرقت نفوسهم روحه المخلصة المؤمنة، يقدم العلم

صفوا لا يرنقه مراء و لا التواء، يمضي في قول الحق قدما لا يهمه رضي الناس أو سخطوا ما دام الذي بينه و بين الله عامرا.

و يظهر أن ذلك كان في دمه الذي يجري في عروقه، فهو في الجهاد في الحق منذ نشأ، و إن في أسرته لتقوى و قوى نفس و صبر و احتمال للجهاد، إنه من أسرة كانت في القوقاز؛ حيث المنعة و القوة و جمال الجسم و الروح و سلامة الفكر و عمقه.

و لقد انتقل أبوه إلى الآستانة فولد على الهدى و الحق، فدرس العلوم الدينية حتى نال أعلى درجاتها في نحو الثامنة و العشرين من عمره، ثم تدرج في سلم التدريس حتى وصل إلى أقصى درجاته و هو في سن صغيرة، حتى إذا ابتلي بالذين يريدون فصل الدنيا عن الدين لتحكم الدنيا بغير ما أنزل الله، وقف لهم بالمرصاد، و العود أخضر و الآمال متفتحة و مطامح الشباب متحفزة، و لكنه آثر دينه على دنياهم و آثر أن يدافع عن البقايا الإسلامية على أن يكون في عيش ناعم، بل آثر أن يكون في نصب دائم فيه رضا الله، على أن يكون في عيش رافه و فيه رضا الناس و رضا من بيدهم شيءون الدنيا، لأن إرضاء الله غاية الإيمان.

جاهد الاتحاديين الذين كان بيدهم أمر الدولة لما أرادوا أن يضيقوا مدى الدراسات الدينية و يقصروا زمنها، و قد رأى – رضي الله عنه – في ذلك التقصير نقصا لأطرافها فأعمل الحيلة و دبر و قدر حتى قضى على رغبتهم و أطال المدة التي رغبوا في تقصيرها ليتمكن طالب علوم الإسلام من الاستيعاب و هضم العلوم و خصوصا بالنسبة لأعجمي يتعلم بلسان عربي مبين.

و هو في كل أحواله العالم النزه الأنف الذي لا يعتمد على ذي جاه في ارتفاع و لا يتملق ذا جاه لنيل مطلب أو الوصول إلى غاية مهما شرفت، فإنه – رضي الله عنه – كان يرى أن معالي الأمور، لا يوصل إليها إلا طريق سليم و منهاج مستقيم، و لا يمكن أن يصل كريم إلى غاية كريمة إلا من طريق يصون النفس فيها عن الهوان، فإنه لا يوصل إلى شريف إلا شريف مثله، و لا شرف في الاعتماد على ذوي الجاه في الدنيا فإن من يعتمد عليهم لا يكون عند الله وجيها.

سعى – رضي الله عنه – بجده و عمله في طريق المعالي حتى صار وكيل مشيخة الإسلام في تركيا، و هو ممن يعرف للمنصب حقه، لذلك لم يفرط في مصلحة إرضاء لذي جاه مهما يكن قويا مسيطرا، و قبل أن يعزل من منصبه في سبيل الاستمساك بالمصلحة. و الاعتزال في سبيل الحق خير من الامتثال للباطل.

عزل الشيخ عن وكالة المشيخة الإسلامية، و لكنه بقي في مجلس وكالتها الذي كان رئيسا له، و ما كان يرى غضا لمقامه أن ينزل من الرياسة إلى العضوية ما دام سبب النزول رفيعا، إن العلو النفسي لا يمنع العامل من أن يعمل رئيسا أو مرءوسا، فالعزة تستمد من الحق في ذاته و يباركها الحق جل جلاله.

و لكن العالم الأبي العف التقي يمتحن أشد امتحان؛ إذ يرى بلده العزيز و هو دار الإسلام الكبرى و مناط عزته و محط آمال المسلمين يسوده الإلحاد، ثم يسيطر عليه من لا يرجو لهذا الدين وقارا، ثم يصبح فيه القابض على دينه كالقابض على الجمر، ثم يجد هو نفسه مقصودا بالأذى و أنه إن لم ينج ألقي في غيابات السجن و حيل بينه و بين العلم و التعليم.

عندئذ يرى الإمام نفسه بين أمور ثلاثة: إما أن يبقى مأسورا مقيدا ينطفئ علمه في غيابات السجون، و إن ذلك لعزيز على عالم تعود الدرس و الإرشاد و إخراج كنوز الدين ليعلمها الناس عن بينة، و إما أن يتملق و يداهن و يمالئ، و دون ذلك خرط القتاد بل حز الأعناق، و إما أن يهاجر و بلاد الله واسعة، و تذكر قوله تعالى: [ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها] (النساء: 97).

هاجر إلى مصر ثم انتقل إلى الشام، ثم عاد إلى القاهرة، ثم رجع إلى دمشق مرة ثانية ثم ألقى عصا التسيار نهائيا بالقاهرة، و هو في رحلاته إلى الشام و مقامه في القاهرة كان نورا، و كان مسكنه الذي كان يسكنه ضؤل أو اتسع مدرسة يأوي إليها طلاب العلم الحقيقي لا طلاب العلم المدرسي، فيهتدي أولئك التلاميذ إلى ينابيع المعرفة من الكتب التي كتبت، و سوق العلوم الإسلامية رائجة و نفوس العلماء عامرة بالإسلام، فرد عقول أولئك الباحثين إليها و وجههم نحوها، و هو يفسر المغلق لهم و يفيض بغزير علمه و ثمار فكره.

و إن كاتب هذه السطور لم يلق الشيخ إلا قبل وفاته بنحو عامين، و قد كان اللقاء الروحي من قبل ذلك بسنين عندما كنت أقرأ كتاباته و أقرأ تعليقه على ما يخرج من مخطوط، و أقرأ ما ألف من كتب، و ما كنت أحسب أن لي في نفس ذلك العالم الجليل مثل ما له في نفسي، حتى قرأت كتابه (حسن التقاضي في سيرة الإمام أبي يوسف القاضي) فوجدته – رضي الله عنه – خصني عند الكلام في الحيل المنسوبة لأبي يوسف بكلمة خير. و أشهد أني سمعت ثناء من كبراء و علماء فما اعتززت بثناء كما اعتززت بثناء ذلك الشيخ الجليل لأنه وسام علمي ممن يملك إعطاء الوسام العلمي.

سعيت إليه لألقاه، و لكني كنت أجهل مقامه، و إني لأسير في ميدان العتبة الخضراء فوجدت شيخا وجيها وقورا، الشيب ينبثق منه كنور الحق يلبس لباس علماء الترك، قد التف حوله طلبة من سورية، فوقع في نفسي أنه الشيخ الذي

أسعى إليه، فما أن زايل تلاميذه حتى استفسرت من أحدهم: من الشيخ؟ فقال إنه الشيخ الكوثري، فأسرعت حتى التقيت به لأعرف مقامه فقدمت إليه نفسي، فوجدت عنده من الرغبة في اللقاء مثل ما عندي، ثم زرته فعلمت أنه فوق كتبه و فوق بحوثه، و أنه كنز في مصر.

و هنا أريد أن أبدي صفحة من تاريخ ذلك الشيخ الإمام لم يعرفها إلا عدد قليل:

لقد أردت أن يعم نفعه و أن يتمكن طلاب العلم من أن يردوا ورده العذب و ينتفعوا من منهله الغزير: لقد اقترح قسم الشريعة على مجلس كلية الحقوق بجامعة القاهرة أن يندب الشيخ الجليل للتدريس في دبلوم الشريعة من أقسام الدراسات العليا بالكلية، و وافق المجلس على الاقتراح بعد أن علم الأعضاء الأجلاء مكان الشيخ من علوم الإسلام و أعماله العلمية الكبيرة، و ذهبت إلى الشيخ مع الأستاذ رئيس قسم الشريعة إبان ذلك و لكننا فوجئنا باعتذار الشيخ عن القبول بمرضه و مرض زوجته و ضعف بصره، ثم يصر على الاعتذار، و كلما ألححنا في الرجاء لج في الاعتذار، حتى إذا لم نجد جدوى رجوناه في أن يعاود التفكير في هذه المعاونة العلمية النبي نرقبها و نتمناها، ثم عدت إليه منفردا مرة أخرى أكرر الرجاء و ألح فيه و لكنه في هذه المرة كان معي صريحا، قال الشيخ الكريم .. إن هذا مكان علم حقا و لا أريد أن أدرس فيه إلا و أنا قوي ألقي دروسي على الوجه الذي أحب، و إن شيخوختي و ضعف صحتي و صحة زوجته، و هي الوحيدة في هذه الحياة، كل هذا لا يمكنني من أداء الواجب على الوجه الذي أرضاه.

خرجت من مجلس الشيخ و أنا أقول أي نفس علوية كانت تسجن في ذلك الجسم الإنساني، إنها نفس الكوثري.

و إن ذلك الرجل الكريم الذي ابتلي بالشدائد فانتصر عليها ابتلي بفقد الأحبة ففقد أولاده في حياته، و قد اخترمهم الموت واحدا بعد الآخر، و مع كل فقد لوعة و مع كل لوعة ندوب في النفس و أحزان في القلب. و قد استطاع

بالعلم أن يصبر و هو يقول مقالة يعقوب [فصبر جميل و الله المستعان] (يوسف: 18)، و لكن شريكته في السراء و الضراء أو شريكته في بأساء هذه الحياة بعد توالي النكبات كانت تحاول الصبر فتتصبر، فكان لها مواسيا و لكلومها مداويا، و هو في نفسه في حاجة إلى دواء.

و لقد مضى إلى ربه صابرا شاكرا حامدا كما يمضي الصديقون الأبرار – فرضي الله عنه و أرضاه.

محمد أبو زهرة